٤ ـ الشعر المرســـل

دراسات الأستاذ أبي حديد وملحقيه

الأســـتاذ دريني خشبة

وقبل أن أعرض على القراء الأفاضل ، وأصدقائي الشعراء منهم خاصة ، نماذج مما نظم روّادنا الأوائل في الشعر المرسل ، وفي مقدمتهم الثائر الأول الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ثم الأساتذة : علي أحمد باكثير ، واحمد فريد أبو شادي ، وخليل شيبوب ، ومن عسينا أن نعرض لهم من شعرائنا فيما بعد ... قبل أن أعرض هذه النماذج أرجو أن أذكر القراء والشعراء على السواء أن الشعر المرسل لا يستعمل إلا في الروايات التمثيلية والملاحم والقصص الطويلة بأنواعها ، وأرجو أن أذكرهم أنهم حينما يتفضلون بقراءته فواجب ألا يقفوا عند آخر البيت أو السطر يتلمسون الفقيد العزيز الذي ضحّي به في هذا الشعر ... هذا الفقيد الذي ما اخترع الشعر المرسل إلا للتخلص من شره .. هذا الفقيد هو القافية

يجب ألا يقف القراء عند آخر كل سطر يتلمسون هذا الفقيد الذي يحسن ألا يعز عليهم مغيبه ، بل يجب أن يقرأوا هذا الشعر المرسل على أنه كلام موزون لا ينتهي عند آخر البيت أو السطر ، ولكنه ينتهي عند ما ينتهي الغرض من الكلام أو الغرض من الحوار ... فالكلام جارٍ Running ما جرى الحوار ولا يقف إلا عند نهاية المنظر ، وليس يقف أجزاء أجزاء عند القافية كما هي الحال في الشعر الغنائي

وقد اتخذ الأستاذ أبو حديد ـ الشطر ـ وحدة له في شعره المرسل ، وكذلك الأستاذ باكثير ؛ أما الأستاذ أبو شادي فقد جعل البيت كله وحدته في أكثر ما نظم ، ولذلك يضطر قارئ شعره إلى الوقوف آخر كل بيت ، وعند ذلك يشعر القارئ أنه يبحث عن الفقيد العزيز أو غير العزيز ، وهو القافية ، وعند ذلك أيضاً يشعر القارئ بخيبة أمل شديدة لاختلال الموسيقا واضطرابها ... أما الأستاذ شيبوب فقد سلك طريق الشعر الحر ، وذلك بعدم الارتباط بعدد التفعيلات في كل سطر ، لكنه بالغ في تعدد البحور مبالغة شديدة ، وفي ذلك من التنافر ما فيه ، مما سوف نعرض له في فرصة أخرى إن شاء الله

مقتل سيدنا عثمان

ذكرنا في الكلمة السابقة أن الأستاذ أبا حديد نظم هذه الدرامة سنة ١٩١٨ وأنها لذلك أول أثر عربي كبير كامل في الأدب العربي ـ أو الأدب المصري ـ بالشعر المرسل ، وأنها لهذا السبب جديرة بالدراسة وجديرة بحسن الالتفات . وموضوع الدرامة يتناول تلك المأساة الباكية التي يدمى لها فؤاد كل مسلم ... المأساة التي غيرت وجه الإسلام وذهبت بحرية الشورى التي بشر بها محمد ... المأساة التي قسمت المعسكر الإسلامي وشقت وحدة المسلمين ، وجعلت من أعظم صحابة أعظم نبي فرقاً ممزقة ، ولبستهم شيعاً وأحزاباً ، وأذاقت بعضهم بأس بعض ... فأغمد المسلم سيفه في صدر أخيه المسلم ، وانتهى الأمر بأن أصبحت إمارة المؤمنين ملكاً عضوضاً وعهداً مفروضاً لا رأي فيه لأحد إلا ما تنتزعه القوة من بيعة تفرضها السيوف المُصْلتة ، ويرفضها الدين المختنق ، وتأباها الضمائر المكبوتة ، ولا تباركها السماء

ويبدأ الفصل الأول من المأساة بحوار بين جماعة من المسلمين الحانقين على سياسة عثمان — رضي الله عنه وغفر له — يشكون مما وصلت إليه الحال من استعمال أمير المؤمنين أهله وأقاربه على الولايات ، وعزله عمال عمر وأبي بكر ، ثم نزوله عن خمس مغانم الحرب لبعض الأفراد من بني أمية ، نزولاً قال عنه عثمان إنه بيع وليس نزولاً ... ثم يقبل مروان بن الحكم — هذا الداهية المسلط على عثمان — مع الشاعر عدي الأموي ، فيدور بينهما حوار يغريه فيه مروان بإثارة العصبية القَبَلية الجاهلية التي محقها الإسلام وعفّى على آثارها ، ويغنيه مروان الأماني ، فيمدحه عدي خيراً وينطلق ، ويقول مروان :

أصبح الناس يداً واحـــدةً
كلهم يرمي إلى قلب أميـــهْ
إنّ للحاسد قلباً قلقاً
لا يرى الراحة ما دام يرى

أثراً للخير فى كف سواه
ما يودون ؟ أكنا همـــلا
ثم أصبحنا مراةً فى قريش ؟
فلئن بات لنا الأمر فقـــد
كان فينا مثله فى الجاهلية
إنما يسمون فينا عبشـــماً
وسيبقى مجدنا ما دام سيف

ثم يقدم خادم فيعطيه مروان بدرة من المال لينطلق بها إلى الشاعر عدى كى يمدح بنى أمية فى (نادى أسد) ، ثم يقدم عثمان فى بعض أصحابه ومنهم على والزبير فيدور حوار نعرف منه أن علياً خبير بما كان يدبره مروان بن الحكم من حصر السلطة فى أيدى الأمويين مستعيناً على ذلك « بسلامة نية ! » عثمان ، ويزجى على النصح لعثمان ، وينهى إليه خبر الشكاوى التى جاءت بها بعض الوفود القادمة من أطراف الإمبراطورية الإسلامية الناشئة فيعد عثمان بتدارك الحال ، وينطلق على والصحابة ويخلو مروان إلى نفسه فيبدى حنقه على إصغاء عثمان لعلى ... ثم يأتى البشير بالفتح وقرب وصول خمس المغانم ، ثم يلى هذا حوار بين نفر من الناقمين على مروان وعلى وعثمان وعلى الأمويين أجمعين ، وفى الحوار غمز شديد لاستسلام عثمان لمروان

وفى الفصل الثانى يحاول مروان إيغار صدر عثمان على على والزبير وعبد الرحمن بن عوف لما رأى من إقبال الشاكين من عمال عثمان الأمويين عليهم وتدخل على والزبير وابن عوف عند عثمان فيما زعم مروان أنه لاشأن لهم فيه ، وتؤثر وقيعة مروان فى نفس عثمان ، فهو يقول بعد ذهاب مروان :

إن فى القول لحقاً ظاهراً
كان من قبلي على الناس عُمَر
فتولاهم بعنف ، ورضـــوا
مثلما يلس للحادى البعير
ولقد كنا نرى الرأى فلا
نحمل القول على غير المشورة
وأرى قومى مضوا فى غير هذا
فيسير الناس بالشكوى إليهم
فيجيئون بشكوى وبلوم
ولعمرى إن من لان تدنى

ثم تصل جماعة من مصر تشكو عبد الله بن أبى السرح ومعهم على بن أبى طالب الذى يظهر تبرمه لما ساد النواحى من ظلم عمال عثمان من بنى قرابته ، ويثور عثمان على على الذى يشتد فى نقده له :

كل يوم وافد من ناحيـــه
فبمصر أفسد الظلم البـــلاد
وعلى الشام أمير كخليفة
ويضج الناس من حكم العراق
وهنا دب الهوى وسط المدينة

فيقول عثمان :

ما الذى أسمع ؟ هل كنت ترى
لك هـــذا الحق أيام عمر ؟

فيقول على :

أى حق ؟ أتظن النصح حقاً ؟
ما الذى أجنيـــه إلا نصبا
إنما أقصد خـــيراً ، فإذا
كنت تأباه فلن أذكر شيئاً

فيضعف عثمان ويغلب عليه عامل الخير والوفاء والإيمان فيقول :

ليس قصدى كل ما هم بنفسك الخ

فيقول على قولة الحق الذى لا يبالى :

أنت قد أصبحت فى بيت أمية
مثلما كان ملوك الجاهليـــه
أفلا تبصر ما كان عمر ؟
إنه ما كان يرضى درها
يتولاه نسيب فوق حقـــه
ولقد أفسحت آمالاً كباراً
لبنى جدك رغم المسلمين
أترى هذا صلاحاً للخلافة ؟

فيقول عثمان :

ذاك رأيى ، ولكل ما يرى

فيقول على غاضباً :

إننى لولا حفاظى لقطعتك

ستراني باعداً عن كل أمرك

ثم يخرج ثائراً فيقول عثمان حزيناً :

ساءه ما قلت — والله لقد
هاجني ما قال مروان بشأنه
قبح الله حياة الطامعين الخ ...

وفى الفصل الثالث تجتمع فرق من الساخطين من كل صقع فيعزمون أمرهم على الشكوى لعبد الرحمن بن عوف ، فإذا خرج أكثرهم دخل عثمان ومروان ، ويسأل عثمان عن على ثم يخبره أحد الحاضرين عما تم بنادى أسد من تفاخر كتفاخر الجاهلية وما انتهى إليه هذا التفاخر من إحياء العصبية الجاهلية التى أراد مروان بإحيائها التفاخر الكاذب بأمجاد الأمويين قبل الإسلام وستر تأخرهم فى اعتناق الدين الجديد . وينصرف عثمان لزيارة على ... ويقبل عبد الرحمن بن عوف فى جماعة من المتذمرين الذين يذكرون له أنه كان السبب فى اختيار عثمان للخلافة برغم الإجماع على اختيار على ، فيهدئهم حتى يقبل عثمان ومعه مروان أيضاً فيلاحيه ابن عوف ، فإذا سأله عثمان أجاب أنه لا يذكر شيئاً حتى تنصرف الجماعة . فإذا انصرفت بقى مروان كالذى لصق بالأرض فيأمره عثمان فينصرف متلكئاً وبعد أن يراوغ ، ثم يقول ابن عوف لعثمان مثل الذى قال له على من الانحراف إلى بنى أمية ، ويشتد الصاحبان ، ثم ينصرف ابن عوف غضبان آسفاً ... ويتألم عثمان بل يحزن لانصراف صاحبه على هذا الوجه

وفى الفصل الرابع يكون عثمان ومروان فى مسجد النبي بالمدينة ، ويشير عليه مروان باتخاذ الحيطة واستدعاء بعض الأجناد — أجناد بنى أمية — من الشام ليكونوا له عدة ضد المتألبين — فيرفض عثمان — ثم يصل وفد كبير من مصر يشكو ، فيصرفه عثمان بعد أن يعده خيراً ، فإذا خرج عثمان لحاجة له عند سمع قال مروان :

رب هل هذا أمير الأمم ؟
لا ! فما للأمر إلا رجل
شائك الحد شديد الساعد
إن عثمان ملاك زاهد
يصلح الأمر له لو أنه
حاكم فى أمة من زاهدين
غير أن الناس ما زالوا أناسا
إنه لو ضاع عثمان فلا
يرجع الأمر لنا من بعده
وجب الآن علينا أن نرى
كيف نبقى الأمر فى قبضتنا

ويهم بالخروج فيسمع لغطاً وضوضاء ، وإذا عثمان يرتد ويذكر لمروان أن المتألبين أخذوا عليه الطرقات هاتفين متصايحين . ثم يدخل على فجأة فيفرح به عثمان ويوسطه فى إرضاء الأحزاب على أن يصلح من الأمر كل ما فسد ويتدارك كل ما يشكون منه

وفى الفصل الأخير تتم المأساة . فذانك الحسن والحسين ابنا على يذودان عن دار عثمان بسيفهما ، وذلك وفد يجادل عثمان فى أمر خطاب زائف ضبطه الثوار مع رسول الخليفة يأمر والى مصر بقتل رؤوس المتألبين وعلى الخطاب خاتم عثمان ... لكن عثمان ينكر الخطاب ويخبرهم أنه إنما أمر بعكس هذا ، فإذا أقنعه رجال الوفد بأن هذا المنكر من صنع مروان وأنه لا بد من تسليمه إليهم رفض أمير المؤمنين رفقاً بمروان الذى لم يكن يستأهل ذرة من هذا الرفق — ثم هذا مروان يشير على الخليفة باستعمال الأناة والمكر حتى يقدم جيش الأمويين من الشام فيقضى به على جميع المتألبين فيرفض عثمان أن يقتتل المسلمون فى عهده . ثم هذا نبل يسقط قريباً من عثمان فلا ينخلع قلبه . ثم هذا محمد بن أبى بكر صديق الرسول يقبل وقد قبض على سيفه يريد قتل عثمان ، فإذا أخذ بلحية الأمير الشيخ ناقماً مستهزئاً ذكره عثمان بمقامه من أبيه أبى بكر فيرتعد فؤاد محمد ، ثم يولى هارباً . ثم يدخل متآمر ثان فيهم بقتل عثمان وتدخل نائلة (زوج عثمان) فتحاول الدفاع عن أمير المؤمنين فيأمر أن تكف ، ثم يرفع كتاب الله ... القرآن الكريم . فى وجه الثائر ويقول له :

إن عندى شاهداً لا يكذبُ
أترى هذا الكتاب ؟ !

فترتعد فرائص الرجل ويولى الأدبار ... ثم يدخل متآمر ثالث قائلاً :

لن أضيع الوقت فى قول طويل
خوف أن تسحر قلبى بحديثك

ثم يهوى بسيفه فيتلقاه عثمان بيده فيقطعها ، ثم يهوى عليه فيقتله غير حافل بدفاع نائلة . . . ثم يحاول قطع رأسه فتدفعه نائلة ، فيمضى لشأنه ، وتقف نائلة تبكى زوجها وترثى أمير المؤمنين

* * *

هذه هى مأساة عثمان صفى رسول الله الذى جاهد فى الله بماله وجاهه وروحه ويده . . . اختارها أبو حديد الشاب سنة ١٩١٨ ليفتح بها ثورته على تقاليد ألفين من السنين ... أو عشرين قرناً من السُّنن العتيقة التى فرضتها علينا القوافى العربية الصارمة . فهل وفق أبو حديد فى هذه المحاولة ؟

لقد اختار أن ينظم من (الرَّمَل) : فاعلاتن فاعلاتن فاعلن — وهى التفعيلات السائدة فى الشطر الأول لهذا البحر ، ثم هو لم يستغن عن تفعيلات الشطر الثانى (العَجُز) ، فكان يأتى في مكان فاعلن الأخيرة بكل التفعيلات التى يبيحها عروض هذا البحر ، فهو يستعمل فاعلاتن وفاعلان وغيرهما مما لا يتنافر وموسيقا الرمل السهلة اللينة التي تيسر للناظم عمله فى غير التواء ولا تعقيد . وسنرى عند عرض درامتيه الأخريين ، ميسون — وخسرو وشيرين — أنه ترك هذا البحر ونظم من (الخفيف) = فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن : وسنرى كذلك إلى أى حد وفق فى استبدال هذا البحر بذاك . على أننا نتساءل ما الذى منع أبا حديد من أن يُلوِّن فى استعمال البحور العربية الأخرى . لماذا لم يستعمل المتقارب الموسيقى الجميل ، ولماذا لم يجرب الطويل السهل الذى هو أقرب البحور إلى النثر مع امتيازه بطول النفس ؛ ولماذا غض من قيمة الوافر والكامل والبسيط والسريع وغيرها من بحور عروضنا الغنية الموسيقية ذات الطنين وذات الرنين . إن الشعر المرسل فى حاجة ماسة إلى ما يعوضه عن القافية موسيقا بموسيقا ، وأنغاماً بأنغام

للأستاذ رأيه على كل حال ، وإن كنت أوثر ألا يقطع عمر فى بحر برأى حتى يجرب النظم منه ، لا مرة واحدة ، لكن مرات متعددات ، أما أن نقطع بأن هذا البحر خير من ذاك لأغراض الشعر المرسل دون أن نجرى من التجارب ما يؤيد ما ذهبنا إليه فتصرف قد يضيع على الأدب المصرى كثيراً من جهود المجاهدين . ولقد ذكرنا فى الفصل الأول من فصول الشعر المرسل أن الشعراء الإيطاليين والشعراء الإنجليز قد انتهوا من تجاربهم على أن البحر الأيامبي Iambic Metre ذى المقاطع العشرة هو أساس البحور للنظم المرسل ، فهلا أجرينا نحن أيضاً تجاربنا على بحورنا كلها لنكتشف أفضلها لهذا الغرض ؟

وبعد ، فهل تصلح مأساة سيدنا عثمان لمسرحنا المصرى ؟ وهل لا نزال نشفق من إظهار شخصياتنا الدينية ، شبه القدسة على خشبة المسرح ؟ وهل عندنا الممثلون الصادقون الذين يصح أن نكل إليهم تمثيل هذه الشخصيات ؟ وإن صح أن لدينا الممثلين ، فمن منهم يؤدى دور سيدنا عثمان أحد العشرة الأول من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ عثمان ... هذا الرجل (الطيب !) الذى أجاد أبو حديد تصويره ، كما أجاد تصوير على . هذا الناصح الحازم الأمين ؟ ثم عبد الرحمن بن عوف ! هذا الصحابى العظيم الصريح ...

أما صلاحية المأساة لمسرحنا فأمر لا مراء فيه ، فهى حافلة بالمشاهد الجليلة التى تزلزل القلب ، والتى صورها أبو حديد ، فأحسن تصويرها ، وإن يكن قد عجل فى بعض المواقف التى كانت تقتضى الإطالة ، وأوجز حيث كان ينبغى الإطناب

أما مظنة الإشفاق من إظهار شخصياتنا الدينية على المسرح فلم يعد هناك ما يبررها ، وما دمنا نأخذ بأن الأعمال بالنيات وأن لكل امرىء ما نوى ؛ وما دمنا ، كما ذكرت فى مناسبة سابقة ، نستثنى شخصيات الأنبياء استثناء مؤقتاً . . . ولعل الجامعة الأزهرية التى أخذت تفهم روح العصر وتستجيب للنداء الجديد الذى هو فى الأصل نداء الإسلام الحق ، أن يكون لها مسرحها الدينى فى المستقبل القريب ، فتكفينا شر الخلاف فى هذا الموضوع

أما ممثلونا ، فأنا شديد الإيمان بمقدرتهم خصوصاً إذا مثل معظمهم دور مروان بن الحكم والأدوار الأموية !!... على أن لدينا من المخرجين المثقفين الذين أشربوا الروح الإسلامى ما يضمن لنا خلق الملائكة من أولئك الشياطين !

بقيت كلمات عن لغة المأساة ، وعن مطابقة وقائعها لما انتهى إليه المحققون من مؤرخى التاريخ الإسلامى ، وعن الروح التى أملت على المؤلف اختيار هذا الموضوع بالذات

فأما لغة المأساة فمتوسطة ؛ ولن يضير أبا حديد الشاب الذى نظمها سنة ١٩١٨ أن يقال هذا فى لغة مأساته . وسنقول إنه كتب خسرو وشيرين بأسلوب أحسن سنة ١٩٣٣